من ذكريات الصبي

أول حب

للأديب حسين شوق

كان أول حب لى فى سنة ١٩١٨ أثناء المنفى فى اسبانيا .. كنا نقضى صيف ذلك العام بغرناطة فى الغابة الجميلة التى تحيط بقصر الحمراء الشاهق، حيث كانت تُريا حظيَّة الملك أبى الحسن الأحمر المنعمة المدللة تمرح بين النرجس والياسمين . وكنا نقيم فى فندق شيّد فى الغابة نفسها حيث يستطيع الزائر أن ينعم بالراحة والسكون مع بقائه بالقرب من ذلك القصر العربى المجيد، وكانت هذه الغابة التى غرست فوق رابية، تطلّ على مدينة غرناطة بمنظرها الرائع وضواحيها الفاتنة . . وكنا فى أوائل فصل الصيف، فلم يحضر إلا القليل من السياح، فلم يكن بالفندق غير أسرة أحد كبار الضباط الاسبان وأسرتنا ؛ فما لبثت الأسرتان أن تعارفتا بعد زمن قليل . . كان أهلى يقضون أوقات طويلة مع الضابط وزوجه يتحدثون عن جمال الطبيعة فى هذا المكان : سكون الغابة، صفاء المياه التى تترقرق فى الجداول الآتية من جبل « الشيرا » الذى يشرف هو كذلك على الحمراء، وقد جلّل الثلج رأسه صيفَ شتاء . .

أما أبى فقد وجد فى الضابط سميراً أنيساً، لأن الرجل كان رغم تربيته الحربية واسع الاطلاع على الأدب والتاريخ . . كما كان يشارك والدى فى توجعه على تلك المدنية العربية الأندلسية العظيمة التى أضاءت العالم الغربى حقبة من الزمن، حين كان يتخبط فى دياجير الجهل والهمجية، ثم ما لبثت أن اختفت فجأة فى فوضى الوجود . .

وكان هذا الضابط أسمر البشرة إلى حد يلفت النظر، وقد قال له أبى مرة إنه لابد أن يكون من أصل عربى، فأمّن الضابط على قوله ذاكراً فى شىء من الزهو أنه عربى من بنى أمية الأمجاد كما تثبت ذلك شجرة نسب أسرته، إذ كان من النبلاء . .

أما أنا، وكان عمرى إذ ذاك ثلاثة عشر عاماً، فما كنت أحفل ببنى أمية ولا بغيرهم، بل كنتُ أقضى الوقت فى الغابة أبحث عن فراشة جميلة أضمها إلى مجموعتى .

كانت تعاوننى فى مهمتى هذه بنت الضابط الصغرى، إذ كان له بنتان : إحداها فى العاشرة وكانت مع الأسف دميمة، ومع ذلك كنتُ أصطحبها فى جولاتى خلال الغابة لافتقارى إلى رفيق . . أما أختها الكبرى فكانت فى مقتبل العمر، وهى آية فى الحسن، بيضاضتها ولونها الخمرى، وعينها السوداوين الصغيرتين الحادتين، ووجهها الذى يبسم دائماً كأنه أيام الربيع ...

وكانت هذه الفتاة الرشيقة التى تُسمى خوانا، وكان أهلها يدعونها خوانيتا (تصغير خوانا) — تدليلاً ومحبة — تتكرّم أحياناً بمصاحبتنا فى رحلاتنا . . عندئذ كنتُ أحسّ بسعادة عظيمة تغمر قلبى ووجدانى، لابد أنى كنت أحب خوانيتا حباً جماً إذ ذاك، فقد فقدتْ يوماً شالها الحريرى الصغير الذى كانت تلف به عنقها فى إحدى هذه الرحلات، فأخذنا نبحث عنه — نحن الثلاثة — حتى عثرت عليه أنا معلقاً على جذع شجرة، ولكنى بدلاً من أن أرده اليها ألفيت نفسى أقبله، ثم وضعته خلسة فى جيبى لأحتفظ به . كم كان طيباً عبيق هذا الشال ! وكيف لا يكون وقد أحاط بجيد محبوبتى خوانيتا، وتنسم عبيق غدائرها الساحرة ؟ وكنت فى الليل حينما أرجع الى مخدعى وتتراءى لى صورة خوانيتا فتطرّد عنى النوم أضمّ الى صدرى هذا الشال فيهدّئ وجوده أعصابى ويجلب الىّ النوم والراحة

أردت مرة أن أقدم اليها هدية مدفوعاً فى ذلك بحب الصبا الجنونى، ولكن ما الذى كنت أستطيع أن أقدمه اليها ونفقة جيبى ضئيلة لاتزيد فى الشهر على ثلاثين فرنكاً اسبانياً ؟ عندئذ قمت بهذه التضحية : أعطيتها مجموعة الفراش التى عانيت الشاق فى جمعها !

أما خوانيتا فلم تكن مع الأسف تشاركنى هذا الحب ... كم كنت أحمق حين ظننت أن فتاة كخوانيتا فى العشرين من عمرها تبادل صبياً فى مثل سنى الحب ؟ على أن خوانيتا كانت تجد تسلية كبيرة فى التظاهر بحبى، فتلعب معى أدواراً مؤلمة . . فمن ذلك أنها كانت تحتفظ بيدى فى يدها — أثناء الرحلات — فكنت اذا ماعدت الى الفندق لا أغسل تلك اليد طول النهار، حتى أحتفظ برائحة خوانيتا فيها، كما كنت أشمها وأقبلها خلسة من وقت الى آخر . . .

وكانت خوانيتا ترسل الى أحياناً بعض تلك النظرات التى لا يقوى على مواجهتها قديسو اسبانيا جميعاً ! وصار أهلها الذين